إبعاد الأردن للسفير السوري: الدوافع والدلالات

■ حميدي العبدالله

قام الأردن بخطوة قد لا تبدو مفاجئة باعتباره سفير سورية في عمّان شخصاً غير مرغوب فيه. وفي ردّ متعارف عليه دبلوماسياً في مثل هذه الحالات، أعلنت سورية أنّ القائم بالأعمال في السفارة الأردنية في دمشق شخص غير مرغوب فيه، وأبلغت السفارة الأردنية منعه من دخول الأراضي السورية، وهذا الإجراء لا يعني قطع العلاقات الدبلوماسية وإغلاق السفارات، إذ أعلن وزير الإعلام الأردني أنّ السفارة السورية في عمّان ستظلّ تمارس عملها بشكل طبيعي، وفي وسع الحكومة السورية تسمية سفير جديد، كما أعلنت الخارجية السورية أنّ السفارة ستفتح أبوابها أمام الجالية السورية في الأردن يوم الانتخابات المقرّر في 28 أيار، أيّ يوم أمس.

لكنّ ثمة سؤالاً عن دلالة إقدام الأردن في هذا التوقيت تحديداً على اتخاذ هذه الخطوة، لا سيما أنها تزامنت إعلامياً مع تسمية الائتلاف المعارض ممثلاً في الأردن، ما دفع بعض المراقبين والمحلّلين والمتابعين لتطوّر العلاقات السورية – الأردنية إلى التساؤل عما إذا كانت هذه الخطوة تخفي تصعيداً جديداً بدأ دبلوماسياً وقد يتحوّل إلى تصعيد عسكري، سواء لناحية تسهيل دخول المسلحين الذين درّبوا في الأردن على أيدي الاستخبارات الأميركية والأردنية إلى سورية، أو حتى لناحية احتمال وقوع تحرّشات عسكرية يباشرها الجيش الأردني ضدّ الجيش السوري.

من المعروف أنّ الأردن اتخذ منذ بداية الحرب على سورية موقفاً هو حصيلة حسابات متناقضة مما يجري من حوادث على الساحة السورية، فمن جهة يبدو النظام الأردني على اقتناع تامّ بأنّ القوى والجماعات التي حشدت لمحاربة الدولة السورية تتربّص بالأردن وتتحيّن الفرصة الملائمة للانقضاض على النظام الأردني، وتحديداً جماعة «الإخوان المسلمين» التي دخلت في مواجهات سياسية أكثر من مرة مع النظام، وكذلك الجماعات السلفية، إضافةً إلى تنظيمات «القاعدة»، سواء «داعش» أو «النصرة»، أو أيّ تشكيل آخر. أكثر من ذلك، النظام الأردني شديد الاقتناع أيضاً بأنّ سيطرة المسلحين من مؤيدي «الإخوان» وتنظيمات «القاعدة» على مناطق سورية قريبة من الحدود الأردنية يشكل تهديداً للنظام وللاستقرار في الأردن، ولو كان النظام الأردني يملك استقلالية القرار لكان في طليعة الدول الداعمة للجيش والدولة السورية في مواجهة الجماعات المسلحة لاعتبارات وحسابات تتعلق مباشرةً باستقرار الأردن ودفع الأخطار التي تتهدّد النظام الأردني. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تعرّض الأردن لضغوط خارجية، لا سيما من الولايات المتحدة و«إسرائيل» والمملكة السعودية، لاتخاذ مواقف داعمة للجماعات المسلحة والتغاضي عن الأخطار التي يجلبها مثل هذا الدعم على الأردن، ولهذا السبب سهّل دخول المسلحين والسلاح إلى سورية، ولهذا السبب أيضاً استضاف معسكرات تدريب الجماعات المسلحة وغرفة عمليات تدير النشاطات العسكرية الموجهة ضدّ الدولة والجيش السوري.

على قاعدة إدارة التوازن بين متطلبات استقرار الأردن ومصالح النظام، وعدم القدرة على التحرّر من ضغوط الولايات المتحدة و«إسرائيل» ومن يدور في فلكهما، كانت السياسة الرسمية الأردنية، إذ لم يقطع الأردن علاقاته الدبلوماسية مع سورية على غرار ما فعلت دول عربية كثيرة، لكن في المقابل لم يسعَ إلى ضبط الحدود.

القرار الذي اتخذه الأردن في حق السفير السوري يرد في سياق هذه السياسة، فالأردن سوف يسمح للجالية السورية بالمشاركة في الانتخابات وفي مقرّ السفارة السورية، لكن هذا الموقف سيجرّ عليه غضب واشنطن و«تل أبيب» والرياض، ولكي يطوّق هذا الغضب عمد إلى اعتبار السفير السوري شخصاً غير مرغوب فيه، ووافق على استقبال ممثل للمعارضة السورية في خطوة يدرك النظام جيداً أنها في غير مصلحته لأنه يرسي سابقة سترتدّ عليه مستقبلاً، في محاولة منه لتطويق واحتواء أي رد فعل على سماحه بإجراء الانتخابات السورية في الأردن.

هل الوضع في ليبيا «باهي» - «باهي» أم خطوة نحو محاربة الإرهاب في أفريقيا واجتثاث مصادر تسليحه؟

■ ميشيل حنا الحاج*

المرجّح أن الوضع في ليبيا ليس «باهي» – «باهي»، أي ليس وضعاً رائعاً تحسد عليه ليبيا ويحسد عليه الليبيون. وكلمة «باهي» هي التعبير الليبي الذي نعرفه عن اللهجة العامية الليبية، تماماً مثلما نعرف من لهجات «تونس» وتعبيراتها الخاصة كلمتي «يعيشك» و«برشه».

لكن الوضع في ليبيا الآن، بل منذ انطلاقة الثورة في 18 شباط 2011 ، لم يكن «باهي» أبداً رغم الإنجاز الذي حققته الثورة بالتخلص من ديكتاتور هو «معمر القذافي» الذي لم تكن مرحلة حكمه أيضا «باهي» – «باهي». فنسبة عالية من الفوضى حلت بالبلاد بعد الثورة وأدت الى سلسلة من الاغتيالات كان أبرزها اغتيال السفير الأميركي كريس ستيفانس، إضافة الى سلسلة من عمليات الاختطاف، كان آخرها اختطاف السفير الأردني، لكن أبرزها كان اختطاف زيدان رئيس الوزراء الليبي آنئذ.

نتيجة عمليات الفوضي التي سادت، كان ظهور الحركات الإسلامية المتشددة التي اتسم سلوكها بالإرهاب، وأبرزها حركة «أنصار الشريعة» التي اتسم سلوكها باتجاهين مهمّين مدمرين:

أولهما ممارسة الضغط المستمر على المجلس الوطني الليبي المنتخب، لتغيير رؤساء الوزارات المعينين من قبل المجلس، ما أدى الى تبدل وزاري بين الفينة والأخرى، بدءاً بجبريل وانتهاء بالرئيس الحالي أحمد معيتيق، والذي يبدو أنه فرض فرضاً على المجلس، ما شكل شرارة الانطلاق لحركة «الكرامة» التي أطلقها اللواء المتقاعد خليفة حفتر، والتي شرع يلتحق بها العديد من المؤيدين رغم علامات الاستفهام التي تحوم حول حفتر نفسه. فهل هو (أي خليفة حفتر) يسعى إلى أن يكون سيسي ليبيا اقتداء بالمشير عبد الفتاح السيسي الذي قاد التغيير في مصر، والذي حاربته أميركا ولم تبد ارتياحاً نحوه، أم أن حفتر هو رجل أميركا، رغم التزامها الصمت نحو حركته؟ وهو رجلها لكونه أمضى السنوات الأخيرة في الولايات المتحدة ومنح الجنسية الأميركية، بل قيل على لسان باحث استراتيجي أميركي هو عاطف عبد الجواد خلال مناقشة شارك فيها على «بي بي سي عربي»، إن حفتر من رجال الاستخبارات الأميركية.

ثانياً، ما اتسمت به حركة «أنصار الشريعة» ليس مجرد إثارة الفوضى وأعمال الاختطاف والاغتيال في ليبيا، بل امتد إلى تزويد حركات الإرهاب الأفريقي بالسلاح، ما أدى الى نشاط ملحوظ ومفاجىء لتلك الحركات مثل حركتي «بوكو حرام» في نيجيريا، وحركتي «الأزواد والطوارق» في مالي، إضافة الى ما يحصل في أفريقيا الوسطى، وما يجري أيضا في سيناء المصرية. فالكم الهائل من السلاح في ليبيا لذي استورده القذافي من دون أن ينشىء جيشاً حقيقياً ليستخدمه، إضافة الى ما تدفق على القطر الليبي من سلاح لأجل مقاتلة القذافي، وقع جزء كبير منه في أيدي المتطرفين الإسلاميين الذين استخدموه لتأسيس وتنشيط الحركات الإسلامية المتشددة في أفريقيا.

كانت البداية في توريد كميات من ذاك السلاح الى سيناء، إذ ظهرت إلى الوجود من العدم منظمة «أنصار بيت المقدس» التي غض النظر عن نشوئها وتناميها الرئيس السابق محمد مرسي، بغية استخدامها كورقة احتياطية إذا تمرد الجيش عليه. وضبطت قوات الأمن المصرية يومذاك، ولم تكن على ولاء تام لمرسي، عدة شحنات من تلك الأسلحة وصادرتها، بيد أن العديد منها مر ولم يُضبط، ووصل الي أيدي الحركات الإرهابية مثل جماعة «أنصار بيت المقدس» وغيرها من المجموعات، بما فيهم أعضاء في حركة «الإخوان المسلمين».

لكن الأمر لم يتوقف على سيناء فحسب، اذ لوحظ تدفق تلك الأسلحة على دول أفريقية أخرى وأبرزها مالي ونيجيريا. ولوحظ منذ عام ازدياد نشاط «الأزواد» و«الطوارق» في مالي، ما استدعى حملة عسكرية فرنسية على مالي أدت الى تحجيمهم ولو حين، إذ عادوا الى النشاط حديثاً، وبدأوا منذ بضعة أيام في مهاجمة مدن والاستيلاء على بعضها مجدداً في شمال مالي.

لكن التطوّر الأهم كان الظهور الكبير المفاجىء والقوي لحركة «بوكو حرام» في «نيجيريا»، إذ سلطت الأضواء عليهم بكثافة عندما اختطفوا نحو ثلاثمئة فتاة من مدارسهن واعتبروهن سبايا استناداً الى المفهوم السلفي التكفيري المتشدد! وأعقبوا ذلك بسلسلة من الهجمات على مدن أخرى مع تفجيرات عديدة كان أحدها في سوق عامة مزدحمة، ما أدى الى مقتل العشرات من المدنيين الأبرياء. ولوحظ تطور آخر على الحركات الإرهابية في أفريقيا، فبعدما هاجم تجمع من قوات الدول الأفريقية، بالتعاون مع القوات الصومالية، منظمة «شباب الصومال» المنتمية إلى «القاعدة»، وإلحاق هزيمة بها، بل ودحرها بطريقة واضحة أدت الى انسحاب «الشباب» الى مواقع مجهولة، واختفائهم من المدن الصومالية، عاد هؤلاء فجأة الى الظهور حديثاً في العاصمة الصومالية، بل نفذوا أيضاً تفجيرات في بعض المواقع الكينية، مذكّرين بالهجوم الأكبر في نيروبي، العاصمة الكينية، قبل بضعة أشهر، على تجمع لأسواق تجارية (مول) استمر عدة أيام وأدى إلى وفاة عدد كبير من المدنيين.

التطور الأهم كان حين فرض هؤلاء الليبيون الإسلاميون المتشددون على المجلس الوطني الليبي عزل رئيس الوزراء السابق بطرائق وصفها البعض بالملتوية وغير الديمقراطية، وانتخاب أحمد المعيتيق رئيساً للوزراء بدلا منه، مع اشتباه الكثيرين بكون معيتيق اسلامي الاتجاه، رغم أن البعض القليل رجح كونه معتدل الاتجاه وليس إسلامياً. وكانت مهمة معيتيق الإشراف على الانتخابات البرلمانية المقبلة، وهذا ما خشي منه البعض، ومن ظهور برلمان فيه أكثرية إسلامية تحلّ مكان «المجلس الوطني» الحالي الذي كانت فيه نسبة واضحة من العلمانيين والمعتدلين قياساً بالعدد القليل من الأعضاء ذوي الاتجاه الإسلامي المتشدد.

هنا تطلب الأمر ظهوراً مفاجئاً للواء المتقاعد خليفة حفتر للحيلولة دون ذلك ودون سيطرة الإسلاميين على مقادير الأمور محوّلين البلد الى «أفغانستنان» أخرى تتنامى فيها قوة «القاعدة». واذا كانت «القاعدة» في أفغانستان تخيف أميركا والدول الأوروبية رغم بعدها الجغرافي عنهم، فإن ظهور القاعدة وتناميها في ليبيا، كان مدعاة لمخاوف أكبر نظراً إلى قرب الشواطىء الليبية من الشواطىء الأوروبية، خاصة من الشواطىء الإيطالية التي كان يقتضي الأمر في حالتها مجرد رحلة بزورق لا تستغرق إلّا ساعتين من الزمان.

هذه المخاوف قد تفسر الموقف الأميركي من «حركة الكرامة» التي يقودها حفتر، رغم الادعاء الأميركي بأنهم غير معنيين بالتطورات الداخلية في ليبيا، وبأن القوات الأميركية التي حشدت على عجل على الشواطى الإيطالية هي مجرد حركة احترازية هدفها إجلاء الدبلوماسيين والرعايا الأميركيين الموجودين على الأراضي الليبية، اذا ساءت الأوضاع كثيراً في الجمهورية الليبية. لكن ما ينفي ذلك أو يشكك فيه على الأقل تصريحات حفتر ذاتها. إذ أعلن بحسب عدة قنوات تلفزيونية أنه كان يعد لهذه الحركة منذ عامين، أي قبل تنامي قوة الحركة الإسلامية التكفيرية في ليبيا، وما قد يعزز الدور الأميركي في حركة «الكرامة»، كون حفتر (إذا صدقت المعلومات) عاش لسنوات في أميركا ومنح الجنسية الأميركية، بل جند في خدمة الاستخبارات الأميركية، على ما ذكرت سابقاً، استناداً إلى ما قاله أحد الباحثين الاستراتيجيين المقيمين في الولايات المتحدة، معززاً قوله باستناده الى معلومات مؤكدة.

اذا وجد غموض ما في الموقف الأميركي نحو حركة «الكرامة»، فقد لا يوجد غموض في موقف بعض الدول العربية. ذلك أن قطر التي كانت تجند وتدرب المقاتلين على الأراضي الليبية وترسلهم الى العراق للانضمام الى المقاتلين ضد نظام نور المالكي، وأبرزهم حركة «داعش»، تبدو معادية تماما لتلك الحركة. فاستناداً إلى أقوال وردت على لسان أحد المحاورين السياسيين في برنامج حواري أدارته قناة «فرنسا 24»، فإن «المركز العربي» في لندن والتابع لقطر، اتهم اللواء السابق حفتر بأنه يتعامل مع الاستخبارات الأميركية والاستخبارات المصرية، وربما اتهموه أيضاً بأنه يسير على خطى عبد الفتاح السيسي الذي تحاربه قطر. وهذا يخالف الموقف في كل من السعودية والامارات، الدولتين الكبريين في الخليج، وهو الموقف المعروف بمعاداته لحركة «الإخوان المسلمين»، والمؤيد معنوياً ومالياً لمصر المتوقع أن تنتهي قيادتها لعبد الفتاح السيسي، على ما تدل المؤشرات الأولية للانتخابات التي أجريت للمصريين المقيمين خارج مصر، وظهرت نتائجها حديثاً.

هذا لا يعني مجرد احتمال تجاه الدولتين لتأييد حركة الكرامة بقيادة حفتر من ناحية، اذ قد يشكل أيضاً عودة للخلاف القطري مع السعودية والإمارات من ناحية أخرى، وهو الخلاف الذي توقع البعض انتهاءه بعد الاتفاق الذي وقعته البلدان الثلاثة قبل أسابيع في اجتماع سري عقد في أحد معسكرات الجيش السعودي، وانتهى، على ما قال الاعلامي المخضرم باري عطوان في مقال له نشر قبل بضعة أسابيع، بتعهد قطر التوقف عن دعمها «الإخوان المسلمين» في مصر وفي غيرها من البلدان، مع التوقف عن محاربة المشير عبد الفتاح السيسي الذي تؤيده الدولتان الخليجيتان، إضافة الى تعهدات أخرى كثيرة شكلت خمسة بنود في الاتفاق السري المذكور، أبرزها كم فم الشيخ قرضاوي عن الخطابات المعادية لهاتين الدولتين الخليجيتين.

إذن كيف سينتهي الصراع الراهن في ليبيا؟ هل يمكن وصف نهايته بال «باهي» – «باهي» أم سينتهي الأمر الى حرب أهلية تصرف الإسلاميين عن التفرغ لتقديم مزيد من الدعم إلى الحركات الإرهابية الأفريقية، إن لم تؤد إلى القضاء عليها نهائياً أو نسبياً؟

فهذا الصراع طفا على السطح في حين «كشرت» الولايات المتحدة عن أنيابها في شأن محاربة الارهاب، فهي رفضت من ناحية أن تقدم إلى احمد الجربا رئيس «الائتلاف السوري»، الكثير ما طلبه من السلاح المتطور خوفاً من وقوع تلك الأسلحة في أيدي الاسلاميين التكفيريين الذين كادوا يشكلون القاعدة الجديدة في «سورية» أسوة بـ«قاعدة» أفغانستان، قودموا من ناحية أخرى الدعم الاستخباري والخبرات للقوات النيجيرية لمحاربة «بوكو حرام»، ودعماً مشابهاً لمنصور هادي رئيس اليمن، لمكافحة «القاعدة» في منطقتي أبها وأبين ومناطق الحوثيين، بينما عادت فرنسا أيضاً لتقدم دعماً مشابهاً إلى مالي وأفريقيا وفريقيا الوسطى لمحاربة الارهابيين في هاتين الدولتين. كما شرعت باكستان في الإغارة على المناطق الشمالية من البلاد حيث توجد الحركات الإرهابية المتعاطفة مع «القاعدة» ويسمى أعضاؤها بـ«طالبان باكستان».

هذا كله، مع التزامن الغريب في التوقيت في عدة دول إنما يعني بوضوح أن الولايات المتحدة والدول الغربية ضاقت ذرعاً بالحركات الإرهابية، فقررت أخيراً إعلان الحرب عليها. فهي إن لم تكن قادرة بعد على اجتثاثها على نحو نهائي، فإنها باتت تسعى في أدنى الحالات، إلى الحد من تناميها، مدركة أن هذا التنامي أحد مصادره الرئيسية السلاح الكثيف الموجود في «ليبيا»، وكانت هي مصدره، مثلما أنها جاءت ببعض الإسلاميين الى ليبيا لمحاربة «القذافي، على ما قال أحد المحللين السياسيين خلال حوار سياسي على قناة «فرنسا 24»، فاذا بأولئك الإسلاميين ينقلبون عليها بعد رحيل القذافي، تماماً مثلما انقلب إسلاميو أفغانستان وإسلاميو ايران عليها، من دون أن تتعلم من دروس الماضي التي كان يفترض بها أن تجعلهم يميّزون بين التعامل مع المسلمين باعتبارهم أصحاب دين سمح، بل ورائع أيضاً، من دون التعامل مع المتشددين منهم. فأولئك ينقلبون دائما عليها بمجرد الانتهاء من تحقيق هدفهم المباشر من تحالفهم معها، بل يتحولون عندئذ الى ألد أعدائها بمجرد تحقيقهم النصر أو الاستقرار الأمر لهم.

*** عضو في جمعية الدراسات الاستراتيجية الفلسطينية (Think Tank)، عضو في مجموعة (لا للتدخل الأميركي والغربي) في البلاد العربية، عضو في ديوان أصدقاء المغرب، عضو في رابطة الصداقة والأخوة اللبنانية ـ المغربية، عضو في لجنة الشعر في رابطة الكتاب الأردنيين. عضو في جمعية الكتاب الألكترونيين الأردنيين، عضو في اتحاد دول المقاومة: إيران، العراق، سورية ولبنان، عضو في تجمع الأحرار والشرفاء العرب (الناصريون(، عضو في مشاهير مصر ـ عضو في منتدى العروبة، عضو في «اتحاد العرب» (صفحة عراقية(، عضو في شام بوك – عضو في نصرة المظلوم (ص. سورية(، وعضو في مجموعات أخرى عديدة.**

لماذا باع المثقّف العربيّ نفسه؟

■ د. يحيى أحمد

في ستينات القرن الماضي، لعب المثقف العربي، أو مثقف حركات التحرّر العربي دوراً نهضوياً دانت له سائر المجتمعات العربية في ذاك الوقت بالريادة. عهد ذاك كان لهذا المثقف تألقه الذي لم يخفت بوصول الأحزاب القومية التي لعبت دوراً (لن نخوض فيه لأن هذه التجربة تحتاج إلى بحث خاص) سلطوياً قامعاً، وأنتجت سلطات استبدادية ديكتاتورية في عموم العالم العربي. حتى هنا ازداد تألق المثقف العربي الذي جمع بين فكره ومسيرته النضالية اليومية وعطر هواء السجون بأنفاسه، وكان احترامه ومقامه لدى الجمهور الواسع في العالم العربي يصل إلى مرحلة التقديس.

لا أحد ينكر الدور الذي لعبه هذا المثقف في الانتقال بالمجتمعات العربية من مرحلة الاستعمار الظلامية إلى مرحلة أكثر تنويرية وأكثر نهضوية، لكن هذه المجتمعات كلها اصطدمت بفعل الحركات السلطوية التي لعبت دوراً كابحاً للإنسان العربي الذي أصبح هدفاً للتدمير وليس للبناء، وحتى عملية بناء الدولة لم تكتمل فبقيت الدول العربية منقوصة السيادة وضعيفة.

السؤال هو: أين هذا المثقف اليوم؟ أين يقف؟ لماذا حدث هذا الانتقال النوعي له من موقع المنارة التي ينظر إليها الجمهور إلى موقع الخيانة للقضايا التي تهمُّ الجمهور؟ ما سبب نكوصاً نهائياً له. كان النهوض ومن ثم الفشل في مقارعة الأنظمة الديكتاتورية رغم أن صراع المثقف مع هذه الأنظمة أنتج حراكاً فكرياً لن يفقد بريقه مع الأيام، والآن، وفي هذه الأثناء، وصل المثقف إلى مرحلة النكوص الأبدية بانتقاله إلى موقع العداء مع القضايا التي تهمّ الجمهور العربي، وجميع محاولاته لإظهار نفسه بأنه ما زال الحامي والمدافع عن القضايا العالقة من الحرية والمساواة والعدالة... و... لم تمرّ على الجمهور الذي أثبت بأنه لم يعد ذاك الذي يتبع من دون تفكير، بل أثبت هذا الجمهور بأنه أصبح يملك من الوعي ما يجعله قادراً على المحاكمة.

سقطت هذه الفئة من المثقفين العرب بقرار ذاتي منها، ولا ينفع القول بأنها وقعت في الفخ، لأنها أساساً ليست جاهلة لتقع في فخاخ منصوبة لها من قبل الغرب، هي التي كانت تقارع الإمبريالية منذ نعومة أظفارها. ولا يجوز أن نقول إنها انتقلت بقناعاتها نحو الصحيح بعدما كانت على خطأ، لأن هذا الانتقال إذا وجد لن يحتاج إلى هذه المدة الزمنية كلها. أيضاً من نافل القول إن هذه النخب الفكرية تعي ما تفعل، ولا يجوز القول إنها كبوة وسوف تعود عن خطأها، لأن ما حدث إنما حدث بفعل قرار عقلي اتخذته هذه النخب مع سبق الإصرار والتصميم.

إذن، هل هو ناتج من وصولهم إلى مرحلة اليأس، وكان ضغط الفشل والتقدم في العمر من أهم العوامل التي دفعت بهم إلى اقتناص فرصة السقوط مقابل المال، فكان ذلك من أسهل الحلول في زمن التردي نحو الاستهلاك والربح السريع. استيقظوا ليجدوا أمامهم سلال الذهب مفتوحة أمام راحاتهم، والثمن هو قليل من بيع الكرامة وبيع المبادئ ومن ثم قليل من التآمر ومن بعدها الانخراط في العمل المدمر للأوطان ووضع اليد باليد «الإسرائيلية» للتخلص من القضية الفلسطينية نهائياً ولمصلحة «الإسرائيلي».

سلال الذهب هذه مفتوحة بشروط: خذ ما تشاء، لكننا نحن من يحدد لك طريقة الصرف، ومن أين تأخذ المال؟ نحن من يضع المال في البنوك التي نريد، ونحن من يضع الشروط على سحب الذهب. انظر معي يا صديقي: مثقف أمضى ردحاً من الزمن يعمل على نشر فكر لم يأتِ بثمار تضاهي عُشر ما عُرض عليه. ولم يبقَ من العمر إلّا القليل! فلماذا اللهاث وراء سراب التغيير، ورفعوا شعار فلنحسن أوضاعنا وليذهب الباقي إلى الجحيم.

هذا الموقف فكريّ ناتج من جهد عقلي مبذول بعد تعب التفكير، فكانت تلك النتيجة. لذلك فإنّ وصفهم بالخيانة الفكرية لذاتهم صحيح وبالخيانة الفكرية للآخرين وللجمهور والمجتمع والتاريخ هو صحيح أيضاً. بل أن وصفهم بالعمالة هو نتاج موضوعي بسبب التحالفات التي أقاموها مع أعداء الأمة، فهم باعوا أنفسهم وكراماتهم وفكرهم وثقافتهم وأعراضهم للعدو، مقابل الفاني من هذه الدنيا، فهنيئاً لهم حفنة الذهب التي لن يصرفوها على ذاتهم، ومبروك لهم صفة ستدوم عبر التاريخ ولن يُسقطها الزمن بتقادمه.

إنهم خونة وعملاء برتبة «إسرائيلية».

«الإخوان»... من نهج التمسكن إلى خطاب التمكن (2)

■ فؤاد عيتاني

العقل «الإخواني» في تصوره للآخر هو عقل شوفيني يعتقد أنه هو الأفضل، وإذا كان الواقع السياسي فرض عليه أن يتجمل في مرحلة ما ويبتسم في وجوه الناس، طلباً لأصواته كما تقضي الديمقراطية التي أظهر إيماناً شكلياً بها، فإنما ذلك من قبيل المصلحة. تقول القاعدة الفقهية ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب، والضرورات تبيح المحظورات، وبطبيعة الحال القيادة الراشدة هي التي تحدد المحظور والمباح وتملك هذا الترجيح بما أعطت لنفسها من حق كان محفوظاً للنبي صلى الله عليه وسلم كمبلغ من ربه سبحانه وتعالى.

لكن هذا الحق انتقل بسهولة إلي إمام المسلمين ونائبه، ثم انتقل بشكل أيسر إلى حسن البنا وكلّ قيادة «إخوانية» جاءت بعده « ورأى الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة وفي المصالح المرسلة، معمول به مالم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل في العبادات التعبد دون الإلتفات إلى المعانى وفي العاديات الإلتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد «.

هذا المبدأ السابق يعبر عن أحد أصول الفهم العشرين التي يفهم الفرد «الإخواني» الإسلام من خلالها والتي يقول عنها حسن البنا: «إنما أريد بالفهم أن توقن أن فكرتنا إسلامية صحيحة وأن تفهم الإسلام كما نفهمه في حدود هذه الإصول العشرين الموجزة كل الإيجاز».

إذن هذا الإطار النظري الذي تقدمه «الجماعة» إلى أفرادها هو إطار حاكم للعقل «الإخواني» فلا يتحرك الفرد «الإخواني» بعيدا عنه ويرتب عليه هذا الإطار أن ينتظم ضمن صف «الجماعة» ويسمع لقيادتها ويطيع وهو في ذلك يتعبد لله بهذه الطاعة التي يعرفها البنا بقوله: «وأريد بالطاعة إمتثال الأمر وإنفاذه توا في العسر واليسر، والمنشط والمكره. واسمعوا وأطيعوا لقيادتكم في العسر واليسر،والمنشط والمكره، فهي رمز فكرتكم وحلقة الإتصال فيما بينكم».

تأمّل كيف تُرى تلك المفردات وكيف أنها مفردات عسكرية، تتحدث عن جيش تسمع قواعده لقيادته وتنفذ في حزم وعزم، فقد استقر في وجدان أتباع التيار الإسلامي من أتباع الفكر الشمولي أنهم لا يستطيعون تحقيق أهدافهم إلّا بالحكومة الإسلامية، وهذا يتطلب إعداد قوة عسكرية، ودفعهم هذا إلي تكوين ما يمكن تسميته بالميليشيات الإسلامية التي بلغت مبلغا لا يستهان به من القوة قبل ثورة 1952. والحكومة الدينية التي يسعى هذا التيار إلى تحقيقها، وهو أمر يتفق مع شكل نظام الحكم الإسلامي وشكل التنظيم الذي أقاموه، تعتمد على فكرة القائد والطاعة أو نظام الحكم الفردي، وهذا يطابق نظام الحكومة العسكرية التي قامت بعد ثورة 1952، لذلك أضحى مستحيلاً أن يجمع بينهما نظام سياسي واحد، وبالتالي بات ضرورياً أن يفسح أحدهما المجال للآخر، بعدما أصبح الصدام أمراً حتمياً. هل تغير شيء من ذلك المعنى اليوم، خاصة بعد دخول «الإخوان» الحكم وخروجهم منه بثورة شعبية انحازت فيها المؤسسة العسكرية إلى الشعب مثلما انحازت إلى إرادته في 25 يناير وأرغمت مبارك على التنحي.

الدعوة والكم معا

حاولت جماعة «الإخوان» دوما أن تجمع بين الدعوة والحكم،ولم تنجح جماعة طوال تاريخنا الإسلامى في الجمع بينهما البتة، وانتهت كل محاولة للجمع بينهما بتعرضهما معاً للخطر. للدعوة فضاء ومقتضيات ورجال، وللحكم فضاء ومقتضيات ورجال، ولكل عدته. وتحت مفهوم صحيح يقول أن الإسلام لا يفرق بين الدين والسياسة وهو لا يعني سوى أن الإسلام لا يبيح أن يكذب السياسي أو يخدع أو يكون ميكيافيلياً وأن السياسة في المجتمعات الإسلامية يجب أن تتقيّد بالإسلام. هذا لا يعني أن يشتغل الفقهاء أو الدعاة بالسياسة فيتحولوا من دعاة للدين إلى فتنة حقيقية في الدين، بل ينهضون بمهمتهم في حراسة القيم والأخلاق والدعوة إليها حتى يخرج إلي المجتمع السياسي الذي يتقيد بالأخلاق والمواطن الصالح أيا يكن موقعه وعمله ليكون لبنة صالحة في مجتمعه، فما أحكم ما قاله د.حسان حتحوت أحد رجال «الإخوان» الذي ترك «الجماعة» في منتصف التسعينات وسافر إلى أميركا ليعمل للدعوة فحسب: «لعلي الآن (رغم حماستي آنذاك) كنت أرى ألا يستعجل الإخوان إقتحام الميدان السياسي، خاصة في ما يختص بالحكم لنترك «العظمة للكلاب» ونتفرغ لتحويل شعب مصر كله إلى شعب يؤمن بربه ويطيعه لا في العبادات فحسب بل في المعاملات جميعاً، بخاصة الأخلاق والعمق الروحي، فإذا تم ذلك فالباقي سهل فلا يتحرك الإخوان والرأي العام يتعاطف معهم، إنما هم الرأي العام وهل المجتمعات في حاجة إلى تلك الحركات سوى في أن تنهض إلى جانب الدولة في حماية القيم الإسلامية والدفاع عنها والدعوة إليها وتربية الناس عليها من دون الحاجة إلى تنظيمات حركية تعمل سرا وتضع ولاءها في من يمكن توظيفه لخدمة الأعداء بوعي أو من دون وعي أو على الأقل كما حدث، تتحول تلك المجموعات إلى طوائف دينية تنعزل عن المجتمع وتناصبه العداء وتبقى تناقضاً مع مسيرته نحو أهدافه التي لا تلتقى البتة مع أهدافهم. ولكنها شهوة الحكم التي تتملك العقول والأفئدة».

بالطبع، ضاعت صيحات جميع العقلاء الذين حاولوا الاشتباك مع العقل «الإخواني» بهدف ترشيده أو دفعه إلى المراجعة، فقد تكفلت البنية المعرفية التي نشأ عليها أفراد الجماعة مع القيادة التي تعلمت عبر التلقين الشفهي والمكتوب كيف تستميل القلوب أساساً وتمتلكها وتزين لأعضاء «الجماعة» أنهم نتاج إصطفاء إلهي وتشريف من الله بأن اختارهم لتلك المهمة التي ذهل عنها المسلمون والتي انصرفوا عنها لمتاع الدنيا الزائل.

ما موقع السلمية الآن في عقل الجماعة؟

هل «الإخوان» لا يؤمنون بالقوة كمنهج للتغيير؟ هذا ما حاولت الجماعة عبر عقود تكريسه في الوعي الجمعي للمصريين طوال العقود التي تلت وفاة القائد الراحل جمال عبدالناصر وخروجهم من السجون على يد المقتول السادات. السؤال يجيب عنه حسن البنا نفسه، فتحت عنوان « متى تكون خطوتنا التنفيذية أيها الإخوان المسلمون؟» وبعد أن يقدم لكلامه بقوله و«أريد ان أكون معكم صريحاً للغاية فلم تعد تنفعنا إلا المصارحة. وفي الوقت الذي يكون فيه منكم – معشر الإخوان المسلمين ثلاثمائة كتيبة قد جهزت نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة وفكريا بالعلم والثقافة وجسمياً بالتدريب والرياضة في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجج البحار وأقتحم بكم عنان السماء وأغزو بكم كل عبيد جبار – فإني فاعل إن شاء الله –وصدق رسول الله القائل «ولن يغلب إثنا عشر ألفا من قلة تأمل كيف يتماهي الرجل مع الحديث النبوي، وكيف يركب آلة الزمن ليعود بين الصحابة يتحدث بلسانهم؟ ويعدّ عدتهم وهو في ذلك يؤكد في نفوس أتباعه دوما وعبر كل مناسبة أنهم امتداد لمسيرة الجماعة المسلمة الأولى يواجهون ما واجهته من عنت في سبيل نشر دينها من دون أن ينتبه أنه يتحدث عن معركة يخوضها وسط مجتمعات مسلمة في مجموعها وأن الإسلام اكتمل واستقر في واقع الناس.

لم يسقط الرجل إذن القوة من حساباته بل جعلها مرهونة بإستكمال العدة والعدد، لذلك لم يكن غريباً أن يجعل شعار جماعته سيفين يتوسطهما مصحف دُوّنت تحته كلمة و«أعدوا»! ولكن أعدوا لمن؟! وكيف؟! هذا ما عرفناه عبر تجربة «جماعة» تخفت طويلاً في خطاب المظلومية والتمسكن حتى كشفت عن وجهها الحقيقي يوم أصدر محمد مرسي إعلانه الدستوري في 21 تشرين الثاني 2011 ليدشن دكتاتورية دينية لم يقبل بها الشعب وثار عليها في أشهر قليلة. كان حسن البنا واضحاً في تضمين أفكاره هذا المبدأ استخدام القوة: «إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة حيث لا يجدي غيرها وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة وهم حين يستخدمون هذه القوة سيكونون شرفاء صرحاء وسينذرون أولاً وينتظرون بعد ذلك ثم يقدمون في كرامة وعزة ويحتملون كل نتائج موقفهم هذا بكل رضاء وإرتياح».

تكشف النصوص التي أوردنا بعضها كيف أنها تجعل من العقل «الإخواني» عقلا يشعر بتفرده مقابل الأخرين، فهو وحده الذي يتصدى لمؤامرة كونية تستهدف هذا الدين وأن الله اصطفاه لهذا الدور وهذا تشريف يجعله لا يبالي بأي تضحية في سبيل ذلك، لذلك كان الوقوف في رابعة العدوية لديهم أو غيرها من مشاهد الإحتجاج التي خلطوا فيها بين الدعوة وأدواتها اللسان والبرهان، بالحرب وسلاحها الدرع والسنان، ووقفوا يطلبون ما يعتقدون أنه الشهادة في مشهد هو جزء من معركة سياسية أردات قيادتهم تحويلها إلى معركة دينية في تكرار ممجوج لسائر معارك الحكم عبر تاريخنا، والتي هلكت في ساحاتها أعز النفوس وأخسّها.

أدارت الجماعة ولا تزال تدير الصراع السياسي مع خصومها بعقلية عمياء تستدعى فيها أجواء الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل، فالنصر أو الشهادة، وهي آفة جميع الحركات الإسلامية عبر التاريخ، خلوّ قاموسها من مفردة الانسحاب حتى لو كان تكتيكياً، فهي إما مقتولة أو مسجونة، وهذه كانت دوماً خياراتها المفضلة، لذلك لا يغبط المعتقل أخاه الحر بقدر ما يغبط أخاه المقتول، فهو لديه شهيد اختاره الله، إذ إستشعر إخلاصه بينما يشعر هو بضعف إخلاصه، ولو تمهل قليلا لشعر بضعف في عقله، وليس إخلاصه، لكن ماذا يفعل في السمع والطاعة والمشروع الإسلامي الذي ينتظر النصرة؟ وقد خذله الجميع هو لها إذن وسيبقى مثلما أمره البنا: «كن كالجندي في الثكنة ينتظر الإشارة التي يبقى في انتظارها لتحمله إما إلى القبر، وإما إلى القبو»، وهو في كل الأحوال فائز، مثلما علمته ولقنته طويلاً «الجماعة».

سعى «الإخوان» إلى الحكم عبر عقود طويلة في الحفاظ على تنظيمهم الذي تحوّل الحفاظ عليه إلى هدف وليس وسيلة لتحقيق الأهداف، وإذا كانوا تجملوا في مواجهة العالم طوال ثمانية عقود قبل أن يدلفوا في لحظة استثنائية إلي الحكم.

كانوا مثل رجل بلغ من العمر عتيا في طاعة الله وعبادته، وطال عمره في انتظار أن يرزق بالولد، فلما رزق بالولد وفرح به مثلما يفرح شيخ بطفل أتاه قبل مغيب العمر، مات الغلام بعد عام واحد فلم يعصم الرجل إيمانه بربه ولم تعصمه صلواته وعباداته، وأبى إلّا أن يحرق الدنيا التي لم تتسع لغلامه، في لحظة كاشفة. ودعت «الجماعة» كل ميراثها الأخلاقي الزائف، وغلبتها شهوة حكم لم تقض منه نهمتها بعد فخرجت تحرق الأخضر واليابس في محاولة استعادته، وهي في ما هي فيه لا ترى سوى كرسي الحكم الذي تسلل من بين أقدامها فاستدعت كل قاموس العنف الكامن لديها.